قصة وكانت البداية

بقلم فهد الأسدي

حين تخطى الزورق الشراعي الذي يستقله هاشم التماع البحيرة الى ظلال الجزر المتناثرة التي ترقد عليها عشيرتهم ، غزته عشرات الافكار ..

كان الملاح قد حلّ حبل الشراع الملفوف بالصاري ، وجرّ الشراع قبل ان تسقط بطنه التي لا تزال منتفخة ببعض الهواء في الماء .. لف الملاّح الشراع ، ثم عاد الى (الدوسة) الخلفية ممسكا بعمود الدفع.

اشعل هاشم سيكارته ، فسقط الضوء على جوانب الزورق،وكشف عتمة جوفه للحظات وبانت نجوم العلم الذي يلف الصندوق .. « اية عودة ياهاشم ؟! تجربة مرة ان تواجه النوح ، وشق الصدور ...والعيون المتفرجة ستحمل مع سلامها لك نظرات لا تحتمل ، وكأنها ستعريك.. هل سيشفع لك هذا النيشان ؟ .. العائدون من الحرب ليسوا سوى المنتصرين أو الشهداء او الجرحى على الاقل .. حذار ان تضمد التلفيق ، فالناس هناك هزئوا كثيرا من حكاية « شمعون » .. يوما عاد من الجيش شادا ذراعه على رقبته .. قال ان شظية اصابته،

واعطته العذر ليقعد عن مواصلة الحرب . صدّقه الناس اولا، ولكن في اليوم التالي جاء رفيق له في كتيبته . قال لهم : ان شمعون كاذب .. اننا لم ندخل الحرب بعد ، وامام الناس حلّ الاربطة عنذراع شمعون فبانت الذراع سليمة لم تمسها الحرب بشظاياها رمت عليه امراته (فوطتها) .. رفضت من ذاك اليوم ان يضمها معه سقف..»

* * *

في الكتيبة كان بين الوجوه الصفر التي ارهقتها الهزيمة ... تناقش الجنود همسا فيما بينهم .. كانت آثار الغارة لا تزال تمدّ ظلها على الكتيبة : على المدفع المهصور ، وعلى بعض الكميونات المحترقة .. وعن بعد قليل كانت الحفر التي خلفتها قنابلهم تفغر فاها .. ظروف الدفاع عن هذا المكان اصبحت شاقة وسط هذا الحشد من التراكمات ، لكن الآمر الجديد اصرّ قائلا :

ـ لن نغير هذا الموقع .. لن نتراجع .دافعوا في كل ظرف ،فقد تراجعنا قبلا بما فيه الكفاية .

حين بان العريف هداالنقاش ... اقترب العريف .. نادى :

ـ جندي اول هاشم عبيد :

ـ نعم ..

ـ الآمر يطلبك .

استعد هاشم واجاب : ـ حاضر ..

تحرك الاثنان .. دلف العريف الى الخيمة اولا ، ووراءه انتظر وعندما اشار العريف ، تقدم .. ادى التحية بقرفعة .. تنبه الآمر وقال :

ـ جندي اول هاشم ؟

ـ نعم . سيدي !

ـ الشهيد من عشيرتك ، لذا اخترناك لايصال جثمانه الى اهله..

حار الجواب وقتها على شفتيه كثيرا .. الامر من الرائد مصطفى ... الضابط الذي احبته كل الكتيبة منذ ان كان مساعدا لآمر الكتيبة قبل الغارة الاخيرة .. أوامره على العين والرأس .. لكن وقعت في المصيدة يا هاشم . عيون العشيرة واهل الشهيد سوف لن ترحم نعيب الغراب .. عندهم اذا نعب الغراب فوق رؤوسهم طردوه بالحجارة صائحين : « خير .. خير .. شرك عليك » .. واسترضاء للغراب يكملون : « اذا جاء حبيبي بالسلامة تركت لك على النخلة خبزا وتمرا .. واذا ما جاء فقأ الله عينيك ..»

هتف الرائد :

ـ ها هاشم !.. سكت ؟

اجاب بتلعثم : ـ سيدي ! لو اخترتم جنديا آخر ..

قال الرائد بتصميم :

ـ لا احد يعرف اهل الشهيد غيرك ، ولا حرج فقد بعثت القيادة ببرقية النعي الى اهل الشهيد وستلحق على الايام الاخيرة ..

* * *

واندلق سكون الليل ملونا بالحلكة .. كان لا يمزق هذا السكون سوى اطيار شاردة كانت تسجل ايقاعا ما ، وتستمر طائرة ، والزورق يجتاز التنميرات الصغيرة التي تشطر « النزل » الى مجموعات من الجزر المتناثرة كالوشم على بياض هذا الاتساع المائي الممتد .. « اي .. يا قريتي ! يا من ترقدين في هذا السلام الممل الرتيب .. هنا لا داع لان تشيد مصانع للحزن .. الحزن ينز من العيون .. العيون التي لا يذكرها احد سوى أيام الفداء .. بعيدة انت عن كل الاخبار مدفونة وسط الهور بين البردي والقصّب ووسط اللوعة .. بعيدةعن المدن .. المدن التي لا تعرفك الا بلجان الضرائب ولوائح التجنيد ».

حس الزورق جدار دارهم القصبي ، فاحدث خشخشة عالية .. وصدرت نحنحة .. نحنحة أبيه يعرفها جيدا .. واع طول الليل ..«في الليل يكثر السراق يا ولدي ، والحذر يجب ان لا يسرق عيونه النوم »

صاح الاب من فوق السرير : ـ ها ! من هناك ؟ .

هتف : ـ أنا هاشم يا أبتي .

والتصق الجسدان حارين مفعمين برائحة الحب العميق .. ثم عاد هاشم الى الزورق .

صاح الاب : ـ ها الى أين ؟

ـ ابي لقد جئت بجثمان الشهيد ..الطريق بعيدة وقد وصلت متاخرا .

تبرع الاب لايصال الجثمان قائلا .. بيت سليمان جيران غير بعيدين ، ولا تتعجل ، فالصباح رباح ..

ستراهم ..وستأكل القرية قلبك ..!

* * *

في الصباح أجهد كثيرا ، وهو يغالب نفسه .. قصرت خطواته على الطريق الى (المضيف) .. رمقته رموش كثيرة .. ابتسم بمرارة ، وصافح وحيا ، وبتر مقابلات ارادت ان تطول .. ودلف الى المضيف .. كانت اطر المضيف القصبية وحصرانه يلونها سخام كثيف من طول ما حرق فيه من تبغ وقهوة .. وكانت الوجوه واجمة تتعثر على سقوف حلوقها الكلمات :

ـ هاشم ! الله يساعدك .

ـ أهلا يا حاج .. أهلا يا زاير .. أهلا ..

همس جاره القريب :

ـ حسنا فعلت .. جئت ، وقد خفت المسألة ..

كان سليمان يقعد في صدر المضيف ، يرد على التعازي بكل جلد .. صحيح ان ملابسه تميل الى السواد .. ولكنها ملابس فلاحية وهذا لونها .. كان عقاله لا زال يعلو رأسه .. كانت شجاعة ان يسلك هذا الشيخ مسلكا شاذا عن قواعد الحداد في القرية ..

تشجع هاشم ، وقال بخجل :

ـ عمي سليمان ! ابنك ما مات .. وهذا نيشانه على صدري .

انتشى سليمان ، وغمغم بحمد الله ..

ادار هاشم راسه للجلس وقال بفخر :

ـ انتم يا جماعة لو كنتم هناك لما بقي حجر منكم لا يقاتل .. قبل صحيح كنا ننهزم من العسكرية .. نقول ان المدن لا تذكرنا الا بلوائح التجنيد ولكن الضربة وصلت العظم ..

غمغم احد السذج منهم :

ـ عمي هاشم ! ونحن ما دخلنا في معارك الدول ؟.. معارك الدول ما تنتهي .. شف هذي فلسطين تتعارك عليها الدول .. يقولون طينها فلوس .. اسمها واضح للسامع ..

رغم جو الفاتحة ابتسمت بعض الافواه و .. هتف احدهم :

ـ خاب ظنك .. دائما احمق .. لا فرق بين عقلك وعقل التي تحلبها .. يا طين ، يا فلوس ..

فلسطين وطن يا محيسن ، والوطن اغلى من الفلوس .

انتشى هاشم .. « ها هو الهور يتمطى ايضا .. لقد دخله الترانزستور مع حزيران .. اخبارك اضاءت اعماقه .. حاتم وجماعته يسرحون معلقين الترانزستور في رقبة الجاموسة .. نشرة اخبار لا تفوتهم يوما .. الطابور ممتد كبندقية اسطورية فوهتها في رأس « موشي » وزنادها تحركه اصابع الهور .. »

يا عمام ! محيسن حقه والعتب على من تركوه اعمى .. قبل الايام السود كانت القضية مثل قميص عثمان .. ضاعت بيد السياسة سنين يا عمام وضاعت علينا فرص الوعي بها .. هنا في اعماق الهور لم يكن يصلكم نبأ .. قام هتلر ، حاول ان يحرق العالم بجنونه فاحترق .. راح دون ان تصلكم اخباره !

الهور كان ينام .. ايام ٤٨ لبس ابن المعيدية « رخيصة » ملابس الجندية مرغما .. سيق الى فلسطين ، وهناك مات . احد لا يعرف قبلا لماذا مات .. أتوا الى امه ، قالوا لها « دقة » قتيل .. صرخت قائلة : قتلته الحكومة !.. خافت فلم تطلب (عوضا) .. احد لم يسأل عنها . من يفتش عن معيدية هائمة بين مسارب الهور ؟.. وظل الناس سنين يتندرون على نعائها الساذج .. « بقيتم تلفكم الدوامة : تركب الزوارق الى الهور .. الى هناك يفر الناس من الجوع .. الجوع الى الخبز او الجنس .. بعض يقطع القصب ويعود ، والمغامرون يركبون رؤوسهم الى المغامرات .. هناك عندما تمتلىء الزوارق بالحشيش ـ الحشيش الندي يلذ عندها عليه عناق الاجساد المتعبة الجائعة .. وفي العناق ينسون انهم جائعون او فارون ..! »

احد لا يعرف قبلا لماذا مات « دقة » . لماذا انسيتم « رخيصة » الهائمة ، وقصة ابنها .. ؟!

نبه هاشما استفسار جديد ، فاجاب :

ـ .. ميدانا واحدا لو وصلتموه ـ يا عصام ـ فلن ترضوا بالعودة الا ومعكم فلسطين .. هذا الميدان عرفه ابنكم الشهيد .. ذاك اليوم لو كنتم معنا لتعلمتم كيف تموت الرجال ..

* * *

بعد ايام الهزيمة التي لا زال المقاتلون يلوكون مرارتها ، كانت طائراتهم تحلق بكل حرية ملطخة السماء .. اعداد جرارة تسد عين الشمس .. كانت كتيبة المدفعية المضادة للطائرات تختفي وسط الاحراش تحت اقدام هضبة مرتفعة .. وكانت قد وصلت متأخرة عن المعركة الكبرى .. الجنود يقضون ايامهم ناكسي الرؤوس كثيرا ما تثيرهم الى الخناقات أتفه الاسباب . وبدا الجندي المدفعي عامر سليمان اكثرهم نزقا وتبرما بهذا الفراغ .. كانت عيناه تحملان الم الذي لا يطيق الهزائم ، ولا يستطيع الانتصار ..

في اوقات الهجوع اقترب منه قائلا :

ـ عامر !.. لا شك ان الناس هناك يلتذون الآن .. ما اجمل الهور والحرائق تشتعل في جوفه ..! من يبيت هوارا فيه ستطرد هذه الحرائق مخاوفه .. لن يقترب منه عفريت « احفيظ » وفوق الحشيش الوثير يتعانقون .. ونحن هنا نفتت غضبنا بالاصطبار .. تعال نحارب، او نفر .. اليها .. ها عامر الا تفكر بها ؟!

ويجيبني :

ـ هاشم ..! الخيام التي مررت بها ، والمدائن التي احترقت ، والمساحات التي احتلوها ، كلها مناظر انستني .. لا شك ان الناس هناك يغرقون في دفء علاقاتهم المكرورة .. محتاجون لان تهزهم هزائم اكثر تنتزعهم من الجذور . ولو جاءوا هنا لما ندموا على المجيء .. أتذكر ايامنا الاولى في الهور . هناك عندما كنا نختفي في (ايشاناته) * هاربين من لوائح التجنيد .. لقد كنا نهرب من قدرنا بلا شك .. يا ليت ـ لو كلهم جاءوا لنسوا مثلما نسيت .

شربت كلمات هذا الريفي النقي الذي قادته ثقافته الممتدة جذورها في الطين .. قادته الى الوضوح.. وسرحت . نبهني بيده ، قال :

ـ استرخ الآن ، فلا بد ان نلتحم يوما .

* الايشان : مرتفع داخل الهور .

ومرت الطائرات في اليوم التالي وراقب عامرا ، وعيونه التي تنتقل على المدفع المادعنقه بصمت وعلى الطائرات المغيرة .. انتبه لرقابتي فهتف :

ـ أسفا .. لن يقال عنا شيء . لن يخطوا على شواهدنا سوى اننا تعودنا الصبر !

قلت له : عامر .. حاذر !

اجابني :

ـ انا لا اقول الا الحقيقة ، ومن يخافها عليه ان لا يدخل الميدان .. جبان او خائن لا غير .. اقول لمن تعلمت كل تلك الدروس على المدفعية ، ألكي اتفرج على هذه الغربان ؟

كان الجنود منشغلين في التنظيف .. السواق في ساحباتهم ، والمدفعيون يعيدون تنظيف المدافع الجبارة .. وقسم منشغل في خيام التموين .. ومر الآمر ومساعده مستعرضين .. وكنا قريبا من مدفعنا ستة أنا وعامر واربعة جنود آخرين .. مر بنا الآمر .. سادت فترة صمت وترقب لكن الآمر اكتفى بأن فطب جبينه بتبرم في وجه عامر ومر .. وعندما مر خلفه مساعده الرائد مصطفى ابتسم في وجه عامر ابتسامة حبيبة ، ابتسم عامر على اثرها ، وانزل رأسه الى الارض .. وخمنت ان رابطة ما لم اكن ادركها تربط بين هذا الجندي وذاك الضابط .. رابطة قوية قد اصلها انا يوما .. ولكن حتما ان آمر الكتيبة قد اخطأ الطريق اليها .. والا فلماذا أحبت الكتيبة الرائد مصطفى ؟.. مصطفى لا يوزع الهدايا او النقود ـ كما كان يوزعها ضباط الانجليز ـ لماذا يحبه الآخرون ..؟ اشياء رائعة فيك ايها الانسان ، ولكن المؤلم ان لا يعرفها بعض الناس فيخطئوا ..

* * *

في صباح اليوم الثاني استيقظنا على ضجيج رعد مستمر ، وكان لعنة السماء قد اندلقت علينا دفعة واحدة فاغرة فاها .. مرت اسراب كثيرة ، ونثرت الرعد القاصف فوق الارض ، وذهبت .. والتصقنا بالارض ..

في الليل جاءت الانباء ، ان العدو عاود غاراته على القرى .. ملأتنا بالاسى .. بكى احدنا ، وراح عامر يهدهده بالكلمات .. وباكرا انسانا هذا الرعب المفاجيء مجال تحركنا .. تحولت الكتيبة الى اجزاء لا يحس أي جزء الا بكونه جزيرة لا تربطها جسور .. لماذا ؟.. ربما لاننا كنا مخدرين .. تترتب في اعماقنا بطولات عشائرية ـ كما قال عامر ..

من بين رقدتنا الملتصقة كانت انظارنا تتلصص .. كانت بعض الطائرات تطير على ارتفاع قريب نلمح عليها النجمة بكل بساطة .. وفجاة دوت كتيبتنا .. خلناه اولا انفجار قنبلة قريبة .. ولكن لا اثر .. اتجهت عيوننا الى مكان المدفع .. وصرخ العريف :

ـ عامر ! ما فعلت ؟ لا اوامر رمي عندنا ..

صرخ عامر باهتياج : اوامر .. اوامر .. أية اوامر . اما ترونها قريبة ؟.. ان هذا الاستعراض يمزق اعصابي ..

كنا نرقب هذا المشهد الشجاع بصمت مشلول .. كان عامر يلقم المدفع بقنبلة جديدة ، ثم يسبر المقياس في السماء أزت الطائرة قريبة من رؤوسنا ومرت ، ثم القت قنبلة مرتعشة ، ولكنها بعيدة عن المدفع وابتسمنا .. وانطلقت قذيفة عامر سريعة . اهتز المدفع هزةعنيفة ،اهتز لها عامر بكل كيانه ولكنه لا زال ممسكا بآلة الاطلاق .. وفوق اهتزت « الميراج » بعنف ، وراحت تترنح بطيرانها يندلق من بطنها لهب احمر .. وانكشفت السماء لحظة ثم انقض علينا سرب .. هتف عامر :

ـ الى مدافعكم .. اسرعوا يا رفاق ..

وخرج الآمر حاسر الرأس مهتاجا :

ـ عامر .. ما هذا ؟ انه خروج على الضبط ستدفع ثمنه ..

هتف عامر بكلمات تقطعها العصبية :

ـ سيدي ! لقد نفد مني الصبر ، فارجو ان لا تنتظر حصد طاعتي .

وضاع النقاش في رشة جديدة ، وانطرح الآمر .. هتف المساعد بجنود النقالة فحملوا الآمر .. كانت الدماء تسيل ساخنة من مؤخرته فقد هبرت الرصاصات اعلى فخذه ..

سادت فترة ارتباك قصيرة ، فهتف المساعد :

ـ يا رجال ! الى مدافعكم .. افتحوا النار . لن ندعهم يجنون ثمار العدوان .. لم تعد ارضنا صماء ..

وقامت القيامة ـ يا عمام ـ لكأن جحيمين قد التقيا .. وأبصرته جيدا من بين الضباب والعرق والسخونة .. خفيفا كالفهد وكأن الحرب نزهة والمدفع الجبار لعبة بين يديه .. ووراءه بدأنا نهش الميراجات التي تحاول نهش لحمنا .. السماء من فوقنا تمطر نارا ورصاص .. ولكن ارضنا ايضا تحولت الى ترس قاس .. تقاربنا اكثر واكثر حوله .. لم تعد تخيفنا غيوم السماء .. وكان قد شعرت به ينطرح على جسمي ممسكا خاصرته .. تمتم :

ـ ابلغهم انني أريد ان ادفن على (ايشاننا) وسط الهور ..

وبابتسامة حبيبة لم أر اجمل منها على وجوه من بقوا على وجه الارض قال :

ـ ابلغ الرائد مصطفى بأن يغفر لي خروجي على الضبط ، فقد كانت اعصابي ملتهبة .. لحق الرائد مصطفى على كلماته الاخيرة ، فاحتضن جسمه بحب ، وهتف :

ـ ايها الشجاع ! اغفر لنا أنت .. فقد اعطيتنا البداية .

* * *

احتسى هاشم فنجانا آخر من القهوة .. وترك المضيف .. لقد ثرثر المضيف بما فيه الكفاية .. وخرج الى الربضة .. كانت شمس بلاده تفتح عيونها بلا غربان .. يتسلل ضوؤها الى كل حلكة .. فكر في نزهة قصيرة الى الهور ، ولكنه ادرك لا جدواها .. امامه الطريق .. أبصر .. باستطاعته ان يبصر كل شيء الآن .

بغداد — فهد الاسدي

في انتظار طائر الرعد

لشاعر المقاومة

سميح القاسم

٢٠٠ ق . ل — صدر حديثا

منشورات دار الآداب